اللااندماج الزمني في رواية " العشق المقدنس " لعز الدين جلاوجي

أ/ غنية بوضياف
جامعة بسكرة

الملخص :

ارتبط الزمن بالأدب أشد الارتباط ، وشغل مساحة مهمة في مختلف أشكال الأدب الفنية ، و الرواية بصفتها جنسا أدبيا لم تأت من فراغ بل اتخذت من الواقع موضوعا لها معتمدة على احدى ركائزه المهمة و التي لا يمكن في أي حال من الأحوال الاستغناء عنها و المتمثلة في الزمن .

و إذا عدنا إلى رواية (العشق المقدنس) فإننا نجد الروائي "عز الدين جلاوجي" لا يعتمد فيها على الزمن الخطي بل تجاوز ذلك إلى اللا اندماج الزمني مركزا على تقنية التجريب كملمح حداثي .

Résume:

Il ya une liaison très étroite entre le temps et la littérature . Ainsi il a occupé une place très importante dans diverses formes artistique de la littérature. Et le roman, en tant que genre littéraire, ne vient pas d'un vide, mais tire de la réalité un sujet basé sur l'un des piliers de la tâche, qui ne peut être supprimé en tout cas , c'est le temps.

Et, si on considère le roman "Al ichaq al-Mouqadnans",(l'amour sacro-impie) on retrouve que le romancier Izz al-Din Jalawaji ne s'appuie pas dans ce roman sur le temps linéaire mais sur la non-intégration du temps,en se concentrant sur la technique d'expérimentation comme un indice de modernisme.

يعد الزمن أكثر هواجس القرن العشرين و قضاياه بروزا في الدراسات الأدبية و النقدية ، إذ شغل معظم الكتّاب و النّقاد أنفسهم بمفهوم الزمن الروائي و قيمته و مستوياته و اعتبروه العنصر الرئيس في الرواية المعاصرة [1] .

إذ يمثل الزمن محور الرواية و عمودها الفقري الذي يشد أجزاءها ، وقد أكّد كثير من الدارسين أن الرواية هي : (فن شكل الزمن بامتياز ، لأنها تستطيع أن تلتقطه ، و تخصه في تجلياته المختلفة الميثولوجية ، التاريخية ، و النفسية ..) [2]. و بذلك يكون الزمن عنصرا مهما من عناصر النص السردي ، لأنه الرابط الحقيقي للأحداث و الشخصيات و الأمكنة ، و الرواية هي أكثر الفنون الأدبية التصاقا بالزمن (وإذا اعتبرنا الفنون التشكيلية فنونا مكانية فإن الرواية تعد فنا زمانيا أو عملا لغويا يجري و يمتد داخل الزمن)[3] .

إذ من خصائص الرواية التجريبية تداخل الأزمنة بتداخل الماضي و الحاضر و المستقبل في شكل تداعيات و أحلام و استرجاعا يكسر بها خطية الزمن الكلاسيكي ، وهو ما نطلق عليه اللا اندماج الزمني ، و يعتبر اللا اندماج عملية تعتمد عليها عملية القول لإبعاد بعض المعينات الأساسية الدّالة مثلا على الممثل أو الزمان أو المكان ، فالا اندماج مرتبط بإزاحة هذه المعينات المكانية و الزمانية (الآن) الذي يحيل على زمن عملية القول ، حيث ينفصل عن القول و الخطاب ليسقط إجراء اللا اندماج الزمني محله عنصرا مقابلا هو (اللا آن) مما يجعل زمن عملية القول متميزا بعنصرين يكوّنان هذه المقولة الزمنية (الآن / اللا آن)[4]. بمعنى أن الخطاب في الرواية لا يتميز باستمرارية المؤشرات الزمنية المرتبطة بالحاضر بصفته الزمن الأساس في عملية القول ، و إنما يتزحزح هذا الحاضر (الآن) ليحل محله الماضي أو المستقبل (لا آن) وهذا حسب قدرة الروائي على التلاعب بخيوط الزمن في نسجه للأحداث مما يشكل لنا هذا اللا اندماج) تشاكلا زمنيا آخر جديدا مغايرا للتّشاكل الزمني المرتبط بعملية القول[5].

و القارئ لرواية (العشق المقدنس) يجد أن عز الدين جلاوجي بدأ كلامه بماض (لا اندماج) و هو مؤشر اللا اندماج الزمني في عملية القول من خلال الافعال (بتنا – كانت – كنت ...) و باستحضار شخصيات و أحداث من الماضي (الدولة الرستمية) لتساعد على قراءة الحاضر و استشراف المستقبل ، حيث أبقى الحوادث التاريخية على حالها و دمج فيها قصة غرامية لتشويق القارئ .

و قد أولى الكاتب الشخصية البطلة المتشظية (الحبيب) سرد وقائع قصته بالعودة إلى الماضي عبر الذاكرة ، ليتحدث بعد ذلك باستشراف مستقبلي عن الواقع المتأزم ، و بذلك تؤثر حركة الزمن المصاحبة للتحول في وجود الإنسان الجسدي و النفسي ، فهي بمثابة المحرك الخفي لمشاعر الشخصية و تقلباتها . يقول عز الدين جلاوجي على لسان السارد (كنت أركن إلى الصمت ، أتتبع كلمات الشيخ حرفا حرفا كأنما أقف عند منبع حكمة ، قالت هبة ، تسأل عن الطائر :

نريد سعادتنا نحن يا سيدي ، و أنا و حبيبي نعيش الضياع منذ سنوات ، إننا نبحث عن الاطمئنان ، عن السعادة)[6] نلاحظ في هذا المقطع أن السارد يعاني الاحباط العاطفي و الفكري و ذلك نتيجة استدعاء الماضي بواسطة اللحظة الحاضرة و إحساسه بالتمزق إزاء ماض لا يخضع لقانون ، و حاضر متصل بمأساته لا يستطيع تغييره[7] . إذ لم يتوقف التمزق و التّشظي عند الحالة النفسية فقط ، بل تجاوزها لتشمل (الذات / الأنا) ككيان مفرد يحيل إلى جماعة ، و هذا ما يؤكده غياب اسم البطل (الحبيب) إذ اكتفى الروائي بالإشارة إليه من خلال الضمير رغم كونه العصب الرئيس المتحكم في أحداث الرواية التي جاءت كلها على لسانه ، حيث اتخذ البطل / السارد الذاكرة مرجعا لحكايته ، و هذا يدل على أنه لا يروي كل شيء و إنما يروي فقط ما علق بها من أحداث ، فهو لا يستطيع أن يقص كل شيء ليؤكد لنا أن حكاية الفتنة التي يتكلم عنها في الدولة الرستمية ليست الوحيدة يقول : (و رحت أعيد عليها الكابوس ، و أنا ألعن التاريخ الذي لم يركم على عقولنا إلا المآسي)[8] . فهو لا يهتم بأن تكون لنا ذاكرة واحدة ، كما انه غير معني بالحكاية الواحدة أو الصيغة النهائية[9]. إذ نجده يتذكر داخل التذكر ، فهو يسرد قصة داخل قصة ، إذ يبدأ بتذكر حبيبته و علاقة حبهما ليصطدم القارئ بقصة ثانية تتمثل في الفتن و الثورات التي عرفتها الدولة الرستمية ، ثم يعود بنا إلى القصة الأولى (قصة العاشقين) مستشرفا المستقبل في بحثهما عن السعادة الخالدة التي يحققها حصولهما على الطائر العجيب ، و ما يؤكد أن الزمن في الرواية ليس زمنا حقيقيا بل زمنا فنيا متخيّلا .

فالشخصيات و الاحداث تتحرك و تتشكل في فضاء زمني إذا فقد الحركة تجمد السرد ، لذلك ينساب الزمن مرنا إلى الأمام و في لحظة يسترجع الماضي أو يستشرف المستقبل ، فزمن الرواية لا يسير بخط زمني واحد انتقالا من الماضي إلى الحاضر ثم المستقبل ، بل نجده زمنا متأرجحا بين الماضي و المستقبل ، متخطيا للحاضر و ذلك

حسب ما تتطلبه أحداث الرواية و ما تحمله الشخصيات من قلق و توتر و اضطراب و ضياع ، و بذلك يتحول الزمن من تقنية إلى شخصية رئيسية متحكمة في الأحداث و الشخصيات معا . و نلاحظ اضطراب الراوي في قوله : (و تملكنا العجب ، و غشتنا الدهشة و اتسعت عينا هبة حتى صارتا بحيرتين مضطربتين)[10]. ليزيد توتره الذي أدى به إلى المزاوجة الزمنية و تداخلها إلى درجة تشظيها فتجده يعود إلى الوراء الذي يحمل في طياته الحاضر والمستقبل معا يقول : (حبيبتي ، لقد ابتسم الزمان لنا أخيرا . و سكت أنتظر رد فعلها غير أنها لم تتحرك ، كانت شبه نائمة يميل رأسها عن الشمال .... أردفت بفرح كأنما أكلم نفسي . و أخيرا سنتزوج ، سنقيم عرسا بهيجا يحضره كل أحبتنا هنا في العاصمة ومن خارجها ، سيكون بيتنا عشا للمحبة و الأمان ... لكن أُحذرك سأتزوج عليك) [11]. حيث يكسر الكاتب رتابة هذا السرد بالانتقال بين الماضي والمستقبل في حديثه عن علاقة الحب بين العاشقين لتستمر حركة السرد بشكل متأرجح يتخلله الكثير من المفارقات الزمنية ، إذ يعبر التخييل بالنص من التاريخي إلى الروائي (فالخيال تقنية عمل من أعمال الذاكرة ، و إن قدرتنا على التخييل ليست سوى قدرتنا على تذكر ما مررنا به من قبل و تطبيقه على موقف مختلف ، فالخيال هو الوجه الآخر من الذاكرة سواء في حفظ الصور و تنظيمها أو إعادة تركيبها و ابتكارها)[12].

فالكاتب لا يكتفي بسرد الحياة أو تجربة الذات ، بل يكتب في عالم أرحب يعرفنا فيه على مسارات نشوء الوعي الاجتماعي و تفاعلاته اتجاه كل القضايا السياسية و الاجتماعية و التاريخية .

فعز الدين جلاوجي يحاول اسقاط الماضي على الحاضر للاستفادة من تجارب أسلافنا في انتصاراتهم و انكساراتهم أو ربما يكون التوظيف التاريخي ملاذا يلجأ إليه الكاتب لتجاوز الواقع المر ، حيث يتداخل في الرواية الماضي و المستقبل لتحقيق الحاضر ، فتتكون بذلك لحظة زمنية واحدة تكشف عن الوجهة الداخلية للشخصيات و قوة وعيها و احساسها ، فتتداخل بذلك أبعاد الرواية لتحول الزمن من النسق التتابعي الخطي إلى مستوى متشظي معقد يعتمد على عمق التجربة الإنسانية بآلامها و أحلامها و قلقها و كأن الروائي يعود بنا إلى الماضي لفهم الحاضر ثم يتجاوزه و يهدمه لقراءة المستقبل ، وبذلك يؤدي هذا اللااندماج الزمني وظيفة دلالية تتعلق ببناء دلالة الرواية ، حيث يرتبط التشاكل الزمني الجديد بمسار من الوحدات تخص دلالته[13]. بمعنى أن هذا التشاكل الزمني اللا مندمج

يؤدي وظيفة دلالية بمسار الأحداث على طول الرواية وهذا حسب قدرة الروائي على تفكيك و ربط الأزمنة ليشكل لنا في الأخير بنية زمنية زاخرة بعصر التشويق و إعادة القراءة من طرف القارئ / المتلقي ، و كأنه في حالة إعادة خلق للنص و صياغته وفق رؤيته فالماضي هو المعبر عن الحاضر ، بل هو ساسه و صانعه ، إذ يمزج جلاوجي في روايته (العشق المقدنس) بين زمنين : تاريخي (زمن الحكي) وروائي (زمن الخطاب) ليشكل لنا بناء سرديا يتماهى في الماضي بحوادثه التاريخية المتخيلة لاعتماد لغتها و أجوائها الابداعية و تعابيرها و حواراتها لخلق اصالة حداثية تتبني على الوعي الحقيقي و التواصل مع الماضي و تشغيله لخدمة المستقبل .

فتشظي الزمن و بعثرته في الرواية يمثل أحد مظاهر الرغبة اللاشعورية في الهروب من قسوة الزمن الطبيعي الموبوء إلى عالم داخلي جمالي .

و تنتمي أحداث رواية (العشق المقدنس) إلى فترة الدولة الرستمية و إلى الاشكاليات المعقدة التي لازمت تلك الفترة بكل خلفياتها يحرص فيها الروائي على قيمة الحوار بين المختلفين في الفكر و المذهب يقول : (كثير من الفرق و الطوائف شرعت تفرخ بسرعة عجيبة في الإمارة ، ستتحاور ، ثم تتجادل ثم تتقاتل و تهدم كل شيء)[14].

وقد اتخذ جلاوجي من تيمة الحب بين العاشقين و بحثهما عن السعادة الخالدة نافذة يطل منها على تاريخ الدولة الرستمية ، فكان الحب و البحث عن السعادة هما القاعدة التي انطلق منها الأبطال لتحريك الأحداث و تحقيق الأفعال إذ يتداخل الماضي بالحاضر لاستشراف المجهول . و بذلك يكون موضوع الرواية الأساس هو صراع الإنسان مع الزمن ، فالزمن وحده كفيل بالحب و تناقضاته وفي " العشق المقدنس " استطاع جلاوجي تجسيد حالة الصراع بين الاستقرار و اللا استقرار ، حيث تبدأ الرواية بحلم مفتوح يبحث عن حقيقة و يقين ، فالرواية في الحقيقة رحلة كشف حددها عنوان النص ، فهي بحث عن هوية التقديس و التدنيس في هذا العشق من خلال ارتباطه بالواقع و فتنة التاريخ ليجد القارئ نفسه متأرجحا بين الماضي و المستقبل و بين الحقيقة و الوهم و فتنة التاريخ و حيرة الحب ، و يمثل الحب في الرواية مدخلا لمعضلات فردية و جماعية ، حيث يرتبط المقدس و المدنس بالعشق الذي يربط الراوي بحبيبته (هبة) من جهة و بالعلاقة التي سادت المجتمعات العربية على اختلاف لغتهم و طوائفهم من جهة أخرى في ظل فتن طائفية و دينية و هزائم سياسية تحاول أيدي خفية إثارتها يقول : (سكت لحظة كأنما يبحث عن رأس الخيط ،

تنحنح وقال : ديننا في خطر ، الإسلام في خطر ، أعداؤه صاروا كثيرا يتربصون به ، الدوائر في الداخل و الخارج ، يحتاج منا إلى تضحيات جسام ، ولا معنى لأعداء الخارج إن قضينا على أعداء الداخل)[15].

و هذا ما يجعل الرواية تصبو نحو الآتي (المستقبل) باستشراف تبحث فيه عن يقين يخرج المجتمعات العربية من حاضر متهرئ إلى غد أكثر قوة و امتلاء تحث القارئ على الرؤية و التبصر لفك خلخلة واقع أصابه القلق و الشك و التوتر يقول السارد : (هل يمكن أن يبقى فيها مكان للحلم و كل أفراحنا و أقراحنا و كل آمالنا و خيباتنا دم ؟هل يمكن أن تبتسم في أعماقنا الزهور و قد تغشاها موج الصقيع القاتل ؟)[16]. فمن خلال هذه التساؤلات التي يشارك فيها الكاتب القارئ ندرك أنها تساؤلات عن الحياة و السعادة بالدرجة الأولى ، و هل يمكن أن تتحقق بالحصول على الطائر العجيب ، وهل يمكن أن تكون الصراعات حائلا بين الحبيبين و تحقيق السعادة الأبدية يقول جلاوجي : (وراء كل حلم مستقبلي مباشرة صراع حاضر)[17].فلم تكن الفتنة الطائفية هي الهم الوحيد الذي يشغل بال الراوي ، فقد جاءت العيد من أجزاء الرواية إشارة إلى الهم العربي من مثل : (التداول على السلطة) ، (عواصف الفتنة) ... وغيرها إذ تلتحم قصة العاشقين بقصة الوطن ، و ينتقل مركز الدلالة من الخاص إلى العام يقول جلاوجي على لسان البطل : (ألا يعرف هؤلاء شيئا آخر غير الحرب) [18].

فكانت الكتابة عن الماضي هي نوع من الارتباط به ، و هذا الارتباط ما هو إلا ارتباط بالمستقبل و بذلك يكون القفز عبر هذه الأزمنة هو تخطي للواقع المر . يقول السارد : (أردت أن أقول لهبة أليس هذا التحليق بين أزمنة متناقضة أفضل لنا من أن نسير على خط مستقيم بائس)[19]

فالزمن وحده هو الذي يصنع الفارق في هذه الرواية و يحقق السعادة للحبيبين و يكسب الحب صفة القداسة يقول السارد : (ان نتطهر معنى ذلك أننا نخطو الخطوة الأولى نحو المستقبل)[20]ليضيف لنا كيفية تخطي الحاضر بقوله :(ما أروع أن نكون بلا أحقاد) [21] إذ يتضح لنا أن الحب في النهاية قيمة لا تفقد عمقها و ثراءها الذاتي ، لكن اقترانه بمنغصات الحياة و تورطه في تفاصيلها هو ما يجعله ابن زمنه و ابن فضاءاته المأزومة . و بذلك يكون الزمن هو الشخصية الفاعلة أما العشق فهو الذات المنشطرة و المتشظية عبر هذا الزمن ، إذ نجد جلاوجي في كل جزء من أجزاء " العشق المقدنس " يبدأ بزمن لينتهي

بزمن وبين الزمنين قصة الحب و الصراع ، فالزمن يتداخل بالكون و الحياة و الإنسان و الوجود و العدم و الحياة و الموت و الحضور و الغياب (الزمن هو وجودنا نفسه ، هو إثبات للوجود ثم قهره)[22] وبذلك تتحقق لنا فكرة البناء و الهدم من خلال تخطي الزمن و استشراف المستقبل ، و هذا ما يجعل رواية " العشق المقدنس " رواية استشراف بالدرجة الاولى إذ بالماضي المتضمن للحاضر يدنس العشق و بالمستقبل يكون الطهر و القداسة .

الهوامش

[1] ينظر : مها حسن القصراوي : الزمن في الرواية العربية ، دار فارس للنشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2004 ، ص 36.

[2] محمد برادة : " الرواية أفقا للشكل و الخطاب المتعددين " مجلة فصول ، مج 11 ، ع4 ، 1993 ، ص 22.

[3] الطاهر روابنية : " الفضاء الروائي في الجازية و الدراويش لعبد الحميد بن هدوقة في المبنى والمعنى " مجلة المساءلة ، ع1 ، اتحاد الكتاب الجزائريين ، 1991 ، ص 24 .

[4] ينظر : عبد المجيد نوسي : التحليل السيميائي للخطاب الروائي (البنيات الخطابية ، التركيب ، الدلالة) شركة المدارس للنشر و التوزيع ، الدار البيضاء ، ط1 ، 2002 ، ص 57.

[5] ينظر المرجع نفسه ، ص 59.

[6] عز الدين جلاوجي : العشق المقدنس ، دار الروائع للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ط2 ، 2014 ، ص 74.

[7] ينظر : صبيحة عودة زعرب ، غسان كنفاني – جماليات السرد في الخطاب الروائي – دار مجدلاوي للنشر ، عمان ، الاردن ، ط1 ، 2006 ، ص 86.

[8] الرواية ، ص 99.

[9] ينظر : سامر أبو هواش : " إلياس خوري و أسئلة الكتابة الروائية " مجلة حوار، ع1 ، بيروت ، 2001 ، ص 149.

[10] الرواية ، ص 32.

[11] المصدر نفسه ، ص 30.

[12] جابر عصفور : زمن الرواية ، القاهرة ، دت ، ص 247.

[13] ينظر : عبد المجيد نوسي : التحليل السيميائي للخطاب الروائي ، ص 59.

[14] الرواية ، 59 .

[15] المصدر نفسه ، ص 108.

[16] المصدر نفسه ، 99، 100.

[17] المصدر نفسه ، ص 95.

[18] المصدر نفسه ، 48.

[19] المصدر نفسه ، 123.

[20] المصدر نفسه ، 162.

[21] المصدر نفسه ، ص نفسها.

[22] عبد المالك مرتاض : " في نظرية الرواية – بحث في تقنيات السرد – ، عالم المعرفة ، ع 240 ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، 1998 ، ص 199.